الجزء الأول
الفاتحة وسورة البقرة

رياض القرآن

تفسير

في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي

الدكتور سمير شريف استيتية

رفع
المسهم
غفر الله لوالديه

2010-08-30
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

رياض القرآن

تفسير

في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي

الجزء الأول

الفاتحة وسورة البقرة

الدكتور سمير شريف استيتية

جدارا للكتاب العالمي

عالم الكتب الحديث

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٥/٣/٦٧٤)

٢٢٢

استيتية ، سمير شريف

رياض القرآن : تفسير في النظم القرآني ونهجه النفسي
والتربوي / سمير شريف استيتية .ـ إربد : المؤلف ، ٢٠٠٥ .

(٨٤٠) ص .

ر .إ .(٢٠٠٥/٣/٦٧٤)

الواصفات : / تفسير القرآن / / الآيات القرآنية / / القرآن / /
الإسلام / /

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

جدار للكتاب العالمي
عمان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس
تلفاكس : ٥٦٦٧٢١١

عالم الكتب الحديث
إربد - شارع الجامعة - بجانب البنك الإسلامي
تلفاكس : ٧٢٧٢٢٧٢ خلوي : ٠٧٩/٥٢٦٤٣٦٣
ص .ب : ٣٤٦٩ - الرمز البريدي ٢١١١٠

رياض القرآن

تفسير

في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي

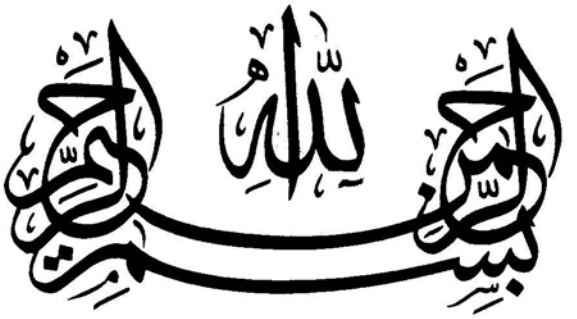
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الطيبين، وبعد،

فممّا لا شك فيه أن العلم بكتاب الله عز وجل، هو أعظم العلوم درجة، وأرفعها شأنا، وأعلاها مرتبة، وأسماها منزلة. وتفسير كتاب الله من أهم العلوم الشرعية؛ به نعرف أوامره ونواهيه، وبه نفهم مقاصده ومراميه، وبه نعرف حلاله وحرامه، وبه نعرف جمال كل آية من آيات الكتاب الحكيم.

لقد أقبل العلماء على كتاب الله يفسّرون آياته، ويشرحون عباراته، ويقربونها إلى الناس، واستخدموا لذلك المعارف التي كانت في زمانهم، وعلّمهم الله إياها، فكان علم التفسير من أوسع العلوم، ففيه تجد علم الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، واللغة، والإعراب والنحو، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والعقيدة، والقراءات، والقصص، وغير ذلك مما هو معروف في كتب التفسير.

وقد انحاز كل تفسير من التفاسير السابقة بمنحى صاحبه، ومُتَوَجّه كاتبه؛ فمن كان من أهل اللغة غلبت على تفسيره أهليَّته، وبرز فيه سمْتُه، ومن كان من أهل الفقه والأصول والتشريع، توجه إلى الاستنباط والأحكام الشرعية في تفسيره.

وقد ظل المفسرون يخدمون كتاب الله بما آتاهم الله من العلم، فلم يقصّروا. ولكنهم مع ذلك كانوا يقعون في هفوات أسأل الله أن يغفرها لهم. ومن ذلك اعتماد بعضهم على الإسرائيليات التي وردت إلى كثير من كتب التفسير، فأوقعت أصحابها في عدم فهم النصوص القرآنية. وهذا وحده كافٍ لرد منهج الاعتماد على الإسرائيليات،

فكيف إذا كانت هذه الإسرائيليات من تأليف أهل الكتاب ونسج خيالهم وتلفيق ألسنتهم وأقلامهم، مما لا يتناسب وقداسة الكتاب الحكيم؟

وكان المفسرون يتداولون الفكرة الواحدة؛ إذا ابتدأ بها واحد منهم، جرت على أقلامهم جميعاً، فكانت في تفاسيرهم سيارة، وفي تأويلاتهم متواترة، حتى إن المرء ليكاد يحسّ أن القول في كثير من المسائل، قول واحد يعود إلى مفسر سابق بعينه.

وقد تعود إلى عدد من التفاسير من أجل أن تقف على سر تركيب من التراكيب القرآنية، فلا تنتهي إلى نتيجة تشفي غليل صدرك، حتى إن بعض أهل اللغة منهم، كانوا يشغلون أنفسهم في إعراب الآيات، وتقديم معاني الكلمات، دون أن يبيّنوا سرّ اختيارها، وعظمة تأليف بعضها مع بعض.

وقد عقدت العزم منذ عقود، على أن أكون من أهل التفسير. وسألت الله عز وجل أن يهيّئني لذلك، وأن يجعل أمره ميسورا. وقد توجهت هذا المتوجّه، وأعددت له نفسي. وقد حاولت أن أباشر هذا العمل قبل ثلاثين سنة، ثم أقدمت عليه. ولكنني تهيّبت هذا العمل، فأحرقت أوراقي واستغفرت الله عز وجل. ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا أنه لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، من بينهن علمه ماذا صنع فيه، أيقنت أني مسؤول عما علمني الله تعالى إياه، وأن السؤال ثقيل ثقيل، فشرعت في كتابة هذا التفسير وسميته "رياض القرآن – تفسير في النظم القرآني، ونهجه النفسي والتربوي". أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله حجةً لي ولأهل القرآن، وأن ينفع به المسلمين، وأن يحشرني تحت لواء القرآن، بصحبة النبي العربي الأمين الذي أرسله الله رحمة للعالمين، جزاه الله عنا وعن كتاب الله خير ما يجزي نبياً عن قومه، ورسولاً عن أمته.

يركز هذا التفسير – كما هو واضح في عنوانه الفرعي - على الأمور الآتية:

أولاً: النظم القرآني

النظم القرآني باب عظيم من أبواب إعجازه. والمقصود بالنظم ارتباط الكلم، وتعلق بعضه ببعض، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في الدلائل. وهذا الارتباط هو الذي ينشئ العلاقات التي تجعل الكلام متضاماً بعضه إلى بعض، دلالة وتركيباً. وهو الذي يفسّر اختيار ألفاظ التراكيب لأداء المعاني المختلفة. وهو أول وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وأوْلاها بالنظر في رأي العرب الذين كان نظم الكلام، يأخذ بمجامع ألبابهم، ويستولي على عقولهم؛ فساق لهم القرآن دروباً من النظم لم يعهدوا بدقتها كلاماً، ولم يعرفوا في مثل انتظام نسقها انتظاماً.

والنظم القرآني له وجوه يظهر بها إعجازه كما قلنا منها: اختيار الألفاظ المناسبة للمعنى المراد توصيله. وتبلغ دقة الاختيار مبلغاً عظيماً ينبئك أن هذا القرآن هو كلام الله، وهو الكتاب الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن وجوه النظم القرآني، ترتيب الكلمات، وإقامة نسق تركيبها على نحو معين.

ثانياً: التوجيهات النفسية والتربوية

القرآن هو دستور النفس الإنسانية وهو منهج تربيتها، وسبيل استقامتها، وطريق نقائها، وخير علاج لأدوائها. ولا تخلو آية واحدة في كتاب الله من توجيه نفسي. وهذا هو الذي يميز القرآن عن سائر الكتب السماوية. وعلى الرغم من أهمية هذا الجانب في القرآن الكريم، فإن التفاسير لم تنتبه إليه، ولم توجّه إليه لفتة ولا عناية. وقد كان القرآن حريصاً على تربية النفس الإنسانية بما يصلح شأنها، ويحفظها من الزلل، فتكون سعادة الإنسان في نفسه. وكان للمنهج القرآني في تربية هذه النفس تميز لا يدانيه تميز.

وإن حرصنا على استخراج التوجيهات النفسية والتربوية لآيات القرآن، لا يعني أننا سنأخذ شيئاً من الدراسات النفسية والتربوية المعاصرة، نزين به كتاب الله، بل يعني أننا سنأخذ من كتاب الله ما لم يعرفه أحد حتى الآن، من دواخل الإنسان، وبنيته

النفسية، ومداخل هذه البنية. وقد ألمّ خادم القرآن بقسط من الدراسات النفسية والتربوية، قسط يجعله أهلاً للحكم بما لهذه الدراسات وما عليها، وما يجعله قادراً على أن يستخرج إطاراً نفسياً شاملاً من القرآن الكريم، يصلح للنفس البشرية في كل زمان ومكان.

ثالثاً: التفسير الصوتي والتركيبي للقراءات القرآنية

ليس الاهتمام بالقراءات القرآنية جديداً في علم التفسير. فمعظم التفاسير القديمة تورد القراءات المختلفة لآيات الكتاب الحكيم. ولكن هذه التفاسير أو معظمها كانت تنزلق في منزلقات خطيرة، فقد كانت تردّ بعض القراءات السبعية أو العشرية. وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد ألفوا كتباً في توجيه القراءات القرآنية والاحتجاج لها من كلام العرب، فإن هؤلاء العلماء لم يتمكنوا من تفسير القراءات القرآنية تفسيراً صوتياً.

وسنركز إن شاء الله على تفسير القراءات تفسيراً صوتياً أو تركيبياً، بما يكفي لبيان أن هذه القراءات ما هي إلا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ولن نتناول كل ما قرئ به كتاب الله، بل نختار من القراءات ما يكفي لإثبات ما قلناه. وإلا فإن هذا التفسير لا يتسع لكل القراءات، فيكفي منها اختيارات نذكرها في هذا التفسير.

لقد بلغ علم الأصوات من الدقة بحيث إن الأجهزة الصوتية المتطورة تدلنا على أدق الظواهر الصوتية وأشدها خفاء في اللغة. ومن شأن معطيات هذا العلم أن تبين الظواهر الصوتية المختلفة وأسرارها في القرآن الكريم.

رابعاً: التفسير بالاستقراء

لا بدّ عند تفسير القرآن من استقراء السياقات، واستقراء الدلالات المختلفة للتعبير الواحد، واستقراء كل ما يتصل به من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وتاريخ النزول. ومن صور الاستقراء تفسير القرآن بالقرآن. وهو باب عظيم من أبواب التفسير

بالاستقراء. وفيه ألّفت تفاسير عظيمة، منها مواهب المنّان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب.

أسأل الله العظيم أن يتقبّل هذا العمل، وأن يتجاوز عما فيه من الوهم والخطأ والزّلل، وأن ينفع به المسلمين، إنه وليّ المتقين. ربنا عليك توكلنا وإليك أنَبْنا، وإليك المصير.

وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيّين والمرسلين، وعلى آله الطّيّبين الطاهرين، الخيار، الكرام، الأبرار، المُنْتَجَبين، وعلى أصحابه الغُرّ الميامين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

سمير شريف استيتية

تفسير
سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

تسميات السورة

لهذه السورة الكريمة تسميات كثيرة، أذكر منها تمثيلاً لا حصرا: الفاتحة (وفاتحة الكتاب)، وأم الكتاب، والراقية، والحمد، والسبع المثاني. ولكل واحدة من هذه التسميات متعلقاتها النفسية، وآثارها المربّية وتوجيهاتها الإيمانية.

أمّا الفاتحة (وفاتحة الكتاب) فإلى جانب كونها أوّل المصحف الشريف ترتيبا، وكونها - بذلك - فاتحة سوره وصحائفه، فهي فاتحة الصلاة بعد النية وتكبيرة الإحرام. ثم إنها فاتحة الخيرات، فقد روي عن عطاء بن يسار أنه قال: إذا أردت حاجة فاقرأ فاتحة الكتاب حتى تختمها تُقْضَ إن شاء الله تعالى.

وهي كذلك فاتحة الإيمان، لأن فيها مفاتيح العقيدة، فالحمد باب الإيمان بالله عزّ وجلّ؛ فالحمد بالقلب واللسان معاً يصدر عن رضا بحكم الله وقدره وقضائه، وشكر واعتراف بفضله ونعمائه. وبمقدار الرضا يكون الحمد. وهذا الرضا لا يكون إلا بعد تسليم مطلق لرب العالمين والخضوع لجلاله. وبمقدار هذا التسليم يكون الرضا. وهكذا يكون الحمد منبعه الرضا، والرضا منبعه التسليم.

إن العقيدة قسمان: عقيدة تصديق، وعقيدة تسليم. والتصديق لا يغني دون وجود التسليم لتقرير الإيمان وثبوته. وإلاّ فإن إبليس كان يصدق بوحدانية الله، ولكنه لم يسلّم بأمره وحكمه، فلم يمنعه تصديقه من أن يتطاول على أمر ربه، فكان كافرا. وبذلك تكون هذه السورة قد استهلت بالحمد الذي هو مفتاح عقيدة التسليم.

وأمّا أنّها أمّ الكتاب وأم القرآن، فقد جاء في بيان ذلك ما رواه الترمذي بسند صحيح، والإمام أحمد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "الحمد لله أم القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني". وقالوا في تفسير ذلك إنها سميت أم الكتاب لأنه يبدأ بها في كتابة المصحف. وهذا في نظرنا قول مرجوح، بل هو أقرب إلى أن يكون غير صحيح؛ لأنّ النبيّ

صلى الله عليه وسلّم إنّما قال ذلك في بيان فضلها، ولم يقله لبيان موضع كتابتها في المصحف الشريف. وقد كانت العرب تصف مركز الشيء بأنّه أمّه؛ فما سميّت مكة أم القرى إلاّ لأنّها مركزها وأهمّها، وواسطة العقد فيها. وكانوا يقولون ضربه على أمّ رأسه؛ أي على وسطه ومركزه. وكانوا يكنّون (مرو) بأمّ خراسان لأنّها مركزه. وعلى ذلك تكون الفاتحة مركز القرآن. وكيف لا تكون كذلك، وفيها الحمد الذي يصدر عن التسليم كما وضحنا، وعقيدة التسليم هي أصل صحة المعتقد.

وأمّا أنها الراقية فقد كشف عن ذلك قصة ذكرتها كتب السنة والتفاسير، وملخصها أنّ جماعة من الصحابة كانوا في المدَر، وكان فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمرّوا على قوم فيهم رجل ملدوغ، وطلب القوم نجدتهم، فقرأ عليه عمر بن الخطاب الفاتحة فعافاه الله عزّ وجلّ، وأعطاهم أهل الملدوغ شاة فذبحوها وأكلوا منها. ولّما علم صلّى الله عليه وسلّم قال: "وما أدراك أنّها الراقية؟". وإذا كان القرآن شفاءً مطلقا للنفس الإنسانية، فإنّ هذه القصة تدعو إلى القول إنّه شفاء للجسد أيضاً. ولكن هذا لا يعني أن نستغني عن الدواء فقد أمرنا به، والامتثال للأمر طاعة يؤجر عليها صاحبها، وقد قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "تداوَوْا عباد الله؛ فإنّ الله ما أنزل داءً إلاّ أنزل له دواءً".

وأمّا أنّها سورة الحمد فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن أنّها سميت بذلك لأنّها تبدأ بكلمة الحمد. وهذا ليس خطأ، ولكن الأهم من ذلك أنّ هذه السورة هي سورة الحمد، من حيث إنه مضمون متعلق بالإيمان، منبثق عنه، ومن حيث إنّ الحمد هو استحقاق ربوبية الله للعالمين، وهو استحقاق صفة الرحمة، ولذلك نحمده لرحمته، والحمد كذلك هو استحقاق ملكيته تعالى ليوم الدين، ولذلك نحمده. والحمد كذلك باب العبادة، وسبيل الاستعانة والاستقامة. والحمد كذلك شكر لتميز هذه الأمة بهذا العطاء.

وأمّا أنّها السبع المثاني فقد جاء في القرآن الكريم: (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني، والقرآن العظيم). وما كان لأحد أن يعرف أنّ الفاتحة هي السبع المثاني، حتى وضح ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فقد روى الإمام أحمد، والنسائي، والترمذي، واللفظ

لـه: "والـذي نفسي بيده مـا أنـزل في الـتوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، وإنّها السبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته".

أمّـا مدلـول (السبع المثانـي)، فمن الواضح أنّ كلمة (السبع) تشير إلى عدد آيات الفاتحة وهي سبع. وأمّا المثاني فهي جمع (مَثْناة)، وعلى ذلك تكون آيات الفاتحة سبعا من الآيـات المثاني؛ أي أنّ كـل واحدة منها مثناة لغيرها. أمّا لماذا وصفت بأنّها من المثاني، فقد اختلفوا في تفسير ذلك؛ فقـال بعـضهم إنّمـا سميت مثاني لأنّه يُثنّى بها في كل ركعة، أي أنّهـا تُقـرأ في كـلّ ركعـة. وقيل إنّما سُميت بذلك لأنّها استثنيت لهذه الأمة، فلم ينزل مثلها على أحد قبلها ذخرا لها.

لـيس مـن الـراجح لـديّ الـرأي الـذي يـرى أنها سميت مثاني لأنه يثنى بها في كل ركعـة لـسبب واضـح، وهـو أنّ الآيـة تقـول: "سبعا مـن المثانـي" ولم تقـل: السبع المثانـي. ومعنى ذلك أن ثمة مثاني أخرى غيرها.

ولـو كانـت قـراءة الفاتحـة في كل ركعة سبب تسميتها مثاني، لأوقع ذلك في وهم مـؤداه أن قـراءة سـائر المثانـي في كـل ركعـة، هو سبب تسميتها هي الأخرى مثاني. ونحن لا نعـرف سـورة في القـرآن يثنـى بهـا في كـل ركعة غير الفاتحة. وبذلك يظهر عدم أرجحية هذا القول.

ولـيس أمـثل من هذا الرأي قول من قال إنّها سميت بالسبع المثاني لأنّها استثنيت لهـذه الأمّـة. ولا ينبغـي أن نـضع مـا يدل عليه الحديث الشريف من استثناء لهذه الأمة بهذه السورة، في موضع تفسيرنا لمفهوم المثاني. لقد نصّ الحديث الشريف على أنّه لم ينزل مثلها في الـتوراة، ولا في الإنجـيل، ولا في الـزبور. هـذا مُسلَّم بـه، ولكـن هـذا لا يفـسر كلمـة المثاني، ولا يدل على معناها ومضمونها؛ فإن المثاني جمع مثناة، وليس للاستثناء موضع في دلالة مثناة ومثان، لا من بعيد ولا من شِعب قريب.

فمـا دلالـة المثاني إذن؟ جاء في آية الزمر وصف عظيم للقرآن فقال تعالى: "مثاني تقـشعر منـه جلـود الـذين يخشون ربهـم ثـم تلـين جلـودهم وقلـوبهم إلى ذكر الله". وجاء في اللـسان: "ويـسمى جميـع القـرآن مثانـي أيـضا لاقـتران آيـة الـرحمة بآيـة العـذاب". في هـذه

العبارة تفسير لطيف لكون القرآن مثاني، فهي منفذ لطيف لتفسير آية الزّمر. وهي كذلك منفذ لطيف لمعرفة سر تسمية الفاتحة بأنها سبع من المثاني، فإنّ كل آية من آياتها تبدأ بأصل، وتثنّي بأمر آخر. وقد جاء في اللسان أيضا: "إذا فعل الرجل أمرا ثمّ ضمّ إليه أمرا آخر قيل ثنّى بالأمر الثاني يثنّى تثنية".

وهذه هي حقيقة التثنية في هذه السورة: تبدأ البسملة بالاستفتاح باسم الله، وتثنّي بصفتيه: الرحمن والرحيم. وتبدأ الآية الثانية بتقرير الحمد لله (الحمد لله رب العالمين)، وتثني بصفة ربوبيته عزّ وجلّ للعالمين. وتبدأ الآية الثالثة بصفة (الرحمن)، وتثني بصفة (الرحيم). وكان مثل هذا قد حدث في البسملة؛ فإن البسملة تبدأ بالاستفتاح بالاسم المفرد (الله)، وتثنّي بصفتيه: الرحمن والرحيم. أما الآية الثالثة (الرحمن الرحيم)، فإنها تبدأ بالعموم المتضمّن في (الرحمن)؛ فإن (الرحمن) اسم شامل يدلّ على عموم رحمته تعالى للمسلمين وغيرهم، ورحمته في الدنيا والآخرة. وتثنّي الآية بالخصوص المتضمّن في صفته تعالى (الرحيم)؛ فهي صفة تدلّ على خصوص الرحمة.

والآية الرابعة (مالك يوم الدين) تبدأ بالمِلك الذي في (مالك)، على قراءة من قرأها بالألف، أو بالمُلك الذي في (مَلِك)، على قراءة من قرأها بدون ألف. وتثني بيوم الدين، حيث لا ملك ولا ملكية لغير الله عزّ وجلّ. والآية الخامسة (إياك نعبد وإياك نستعين) تبدأ بذكر العبادة، وتثني بالاستعانة. والآية السادسة (اهدنا الصراط المستقيم) تبدأ بطلب الهداية، وتثني بتحديد المهدي إليه، وهو صراطه المستقيم، ودينه القويم. والآية السابعة (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، تبدأ بذكر صراط المهتدين الذين أنعم الله عليهم، وتثني باستثناء صراط المغضوب عليهم والضالين. هذه هي المثاني التي في سورة الفاتحة، وهي التي جعلتها (سبعا من المثاني).

مدخل إلى نظم السورة

مدار هذه السورة كلّها على **الحمد**، وقد تعدّدت صور التعبير عنه. فظهر لفظ **الحمد** مرة، واستكنّ في التراكيب كلّها. فكان مدار معانيها على **الحمد**. بدأت السورة بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، وثنّت بـ "الحمد لله ربّ العالمين". وهما جملتان خبريتان مشحونتان بالتعظيم. وقد خرجت كل واحدة منهما عن الدلالة على التقرير والإخبار إلى دلالة تقتضيها العلاقة بين العبد وربه، وهي تعظيم العبد لربه تعالى. وأمّا البسملة فإنّها تخرج عن دلالة الإخبار والتقرير المتضمن في (أستأنس باسم الله)، إلى طلب ذلك والتماسه. وأمّا (الحمد لله ربّ العالمين). فقد أوشك المفسرون أن ينصوا على أنها تتضمن الإخبار بأن الحمد لله عزّ وجلّ، فعباراتهم تدل على ذلك. ولكن الجملة الإخبارية هذه تخرج عن الإخبار بالحمد لتدل على بسط التعظيم المستحق للحمد، واستغراق هذا الحمد له تعالى؛ لكونه جاء معرفا بـ (ال). وعلى ذلك فأداة التعريف هنا للاستغراق، وهو مستفاد من عموم الجنس وشموله.

وقد جاء فعلا العبادة والاستعانة (نعبد) و (نستعين) مضارعين دالين على المجموع، أي: نحن نعبد إياك، ونحن نستعينك. وعلى الرغم من كون هذين الفعلين مضارعين –كما هو معروف – فهما منبتّان عن الزمن؛ فهما في نظرنا **وصف فعلي**، كأنّه قال: إياك نحن عابدون، وإياك نحن مستعينون. وإنّما كان ذلك من أجل الدلالة على استمرار العبادة واستمرار الاستعانة. وأما أن الفعلين دالان على المجموع، فحسبك أن تعلم من هذين الفعلين تقرير الإسلام للعبادة الجماعية، إذ لم يحفل بها دين كما حفل بها الإسلام. ولذلك أكّد الإسلام صلاة الجماعة، وجعلها تزيد على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

ولمّا كانت هذه السورة مكية، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه يتلونها في كل ركعة وفي كل صلاة، في مكة المكرمة؛ حيث كان مفهوم الجماعة محرما عليهم من قبل المشركين، دل ذلك على أن هذه السورة تتحدى أوضاع الإرهاب الفكري، التي كان المسلمون يعانون منها، وأن السورة تجعل العبادة بلباس الجماعة إيذانا بأنه سيكون لهم جماعة آمنة تعبد الله وتستعينه، ولا تنفك عن التمسك بدينه، والارتباط برسالته.

وأما طلب الهداية بعد العبادة والاستعانة فإن له شأنا آخر ؛ فهو باب الهداية إلى الصراط المستقيم. فلا هداية إلا بالعبادة والاستعانة بالله. وطلب الهداية موقوف بتحقيق شرطيه : عبادة الله ، والاستعانة به.

وقد ذهب الذين حرمهم الله نعمة الفهم والذوق ، إلى أن استمرار طلب الهداية يعني عدم تحقيقها للمسلمين ؛ فهم على غير دربها. وإلا فكيف تطلب شيئا هو عندك وبين يديك؟ وقد ردّ عليهم بعض المتحمسين لدين الله قائلين : استمرار طلب الهداية يعني تثبيتها. وإنني أعدّ هذا الرد من قبيل تصديق التهمة ، بمحاولة ادّرائها ، على نحو ما يفعل الذين يدرؤون الشبهات عن دين الله بحسن نيّة ؛ فإذا هم يفسدون ويسيئون أكثر مما يصلحون ويحسنون.

والحق أن **استمرار طلب الهداية** عبادة قائمة بذاتها ، ومطلوبة لذاتها ، حتى لو بلغ الإنسان أعلى درجات اليقين. بل إن استقامتهم لا تتحصل بدون ذلك. وهذا من شأنه أن يدرأ عنهم التقاعس ، والركون إلى حسن أفعالهم ، فلا يحسن ظنهم بأنفسهم ، ولا يقعون في دائرة الغرور والإعجاب بالعمل. ولهذا كان استمرار طلب الهداية عبادة كما قلنا. وقد جعل الله ذلك في السورة ليطلب المسلمون الهداية في كل ركعة.

ثم إن الفرد لا يطلب الهداية لنفسه فقط ، بل يطلبها لنفسه وللآخرين (اهدنا). فهو يطلب الهداية للأمة بمجموعها ، وفيها من المهتدين وغير المهتدين. زد على هذا ، أن عدم طلب الهداية للأمة بلسان الجماعة ضرب من ضروب عدم الاهتمام بها ، وقد قال النبي صلّى الله عليه وسلّم "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

تمثّل سورة الفاتحة من أولها إلى آخرها قضيتين هما : العظمة المطلقة لرب العالمين ، والضعف المطلق للعالمين. وكان عدم فهم هاتين القضيتين هو سرّ الانحراف عن منهج الله في سيرة المغضوب عليهم وهم اليهود ، وسيرة الضالين وهم النصارى. أما المغضوب عليهم فقد تطاولوا على عظمة الخالق ، ولم يقروا بمطلق ضعفهم ، ولم يحمدوه بجليل نعمائه عليهم. وسيرتهم في القرآن تدل على ذلك. بل إن كتبهم تفخر بالتطاول على الله ورسله فكان أن غضب الله عليهم.

وأما الضالون فإن شعورهم المطلق بالضعف وهيمنته على عقولهم، جعلاهم يسحبون هذا الضعف على الله، فجعلوه أحد ثلاثة –ذلك قولهم بأفواههم - فضلوا. فمطلب الهداية هنا موصول بتميز الهداية نفسها. أي أنك لا تطلب هداية فقط، ولكنك تطلب هداية متميزة.

ولما كانت السورة من أوائل ما نزل من القرآن، دل هذا على استقلالية المنهج القرآني بالهداية منذ البدايات الأولى من نزول الوحي. بل إن الوصف بالمغضوب عليهم والضالين، يعني أنه سيكون لرسالة القرآن مواجهة مع الذين انحرفوا برسالات السماء السابقة عن منهج الله.

وهكذا تكون نهاية السورة موافقة لبدايتها، من حيث إنها نسيج واحد، مرتبط آخره بأوله، ومتصل لاحقه بسابقه. فالحديث عن المغضوب عليهم والضالين يردك إلى سر الحمد في البداية، ويعرفك **لماذا تحمده** تعالى. والحديث عن الذين أنعم الله عليهم يردك إلى الحمد أيضا، ويعرفك **كيف تحمده**. وأما أوصافه تعالى القائمة على عقب الحمد، فتعرفك **بالذي تحمده**. والحديث عن الذين أنعم عليهم يشير إلى أنه سيتحدث عن غيرهم. وتصنيف الناس في هذه الفئات الثلاث يردك إلى البداية في كون الله (رب العالمين). وستكون لنا وقفات تفصيلية مع نظم آيات هذه السورة، ونحن نفسر آياتها إن شاء الله تعالى.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

البسملة استئناس بمعية الله عز وجل في كل فعل مشروع. وقد قالوا إن متعلق الجار والمجرور (بسم) فعل محذوف تقديره (أبدأ). وعلى ذلك تكون الجملة فعلية، وهو رأي الكوفيين. أما البصريون فقد ذهبوا إلى أن متعلق الجار والمجرور مبتدأ محذوف مع خبره؛ فيكون التقدير: ابتدائي ثابت أو مستقر باسم الله. وعلى ذلك تكون الجملة اسمية، والذين يفضلون رأي البصرة في تقدير متعلق الجار والمجرور، يرون أن الجملة الاسمية أبلغ في الدلالة على الثبوت والاستمرار من الجملة الفعلية.